ها نحن نعود إليكِ للمرة الثالثة يا غزة

الازمة الحالية معركة استراتيجية وحماس تقودها بثقة على خطى حزب الله والخيارات ما زالت مفتوحة

■ خالد مشعل حاول الوصول الى المفاوضات مع اسرائيل منذ اليوم الاول للاختطاف، ولم يحصر ذلك في المصريين. الاقتراحات والعروض المختلفة توالت عبر قنوات اخرى، والوسطاء لم يكونوا ليبادروا الى التفاوض لولا معرفتهم بأن حماس تملك شيئا بيديها. هذا هو سبب الاعتقاد السائد في اسرائيل خلال اليومين الأولين للاختطاف بأن جلعاد شليت حي يُرزق، وأنه في وضع صحي جيد.

كان هناك تطابق قليل جدا بين الأفكار التي وصلت من دمشق وبين المنشورات التي صدرت باسم الخاطفين في البلاد، بعد الاختطاف باسبوع، والتي تضمنت مطلب اطلاق سراح مجموعات كثيرة من السجناء «النوعيين». ليس صدفة أن اسرائيل وجهت تهديداتها نحو سورية. عنوان ممارسة الضغوط هو خالد مشعل. السوريون من ناحيتهم طلبوا من مشعل أن يُخفض مستوى بروزه، وأن يتوقف عن اطلاق التصريحات، ولكنه موجود عندهم وهم من جانبهم ما زالوا يشدون على يده. أمين عام حزب الله، حسن نصر الله، جاء الى دمشق في هذا الاسبوع هو الآخر خصيصا من اجل مقابلة مشعل و«الشد على أيدي المناضلين».

ما يقترحه مشعل هو في الأساس العودة الى وقف اطلاق النار. من اجل الوصول الى ذلك يتوجب على كل طرف أن يقوم بعدة خطوات بما فيها جدول زمني محدد، أي أن الحديث يدور في واقع الأمر عن اتفاق بين كيان سياسي ونظيره.

اعادة الجندي المختطف موجودة ضمن هذه العملية، والى جانبها التسعيرة الملائمة: اطلاق سراح السجناء الأمنيين في أعداد أقل دراماتيكية من الأرقام التي وردت في منشورات حماس التي صدرت في غزة يوم الاثنين.

اسرائيل مطالبة الآن بدفع ثمن مزدوج: التراجع عن مبدأ عدم دفع ثمن لاطلاق سراح الجندي واعطاء مشعل دور اللاعب الرئيس ومن بيده حلول للمشاكل الاقليمية. من اجل إضفاء مذاق حلو على الحبة المُرة طرح الوسطاء المصريون عدة أفكار خلاقة على شاكلة: نقل جلعاد كوديعة لدى الحكومتين الفرنسية والمصرية، وتعهد اسرائيلي للرئيس المصري باطلاق سراح سجناء في مرحلة لاحقة وليس بالتزامن مع اطلاق سراحه.

من اليوم الثاني للمفاوضات دُعي خالد مشعل الى القاهرة. مشعل اغتبط للرحلة والظهور في مركز الحدث، إلا أن المصريين أوضحوا له أن عليه أن يُبدي المرونة. مشعل رفض، فأعلمه المصريون أن عليه أن يبقى في مكانه، فانهارت الصفقة. اسرائيل ومصر فسرتا ذلك بأن مشعل ليس ناضجا بعد للمفاوضات. يبدو أن الايرانيين جاثمون فوق صدره، وليس السوريين وحدهم، الأمر الذي لا يسمح له بالدخول في مفاوضات منطقية.

رغبة مشعل في الحصول على اعتماد بسبب انجازاته، تبرز بصورة خاصة على خلفية تقديرات جهات بحثية في اسرائيل والتي تقول بأن سقوط حكومة حماس لن يؤدي الى عودة فتح، وأن أبو مازن سيجمع حقائبه في اليوم التالي لانهيارها ويسافر الى قطر. هو لا ينوي التحول الى عميل اقليمي، واسرائيل ستجد نفسها أمام فراغ فظيع وحالة من الفوضى المطبقة.

الأمل في استغلال الاختطاف لاستبدال النظام الحاكم في الجانب الفلسطيني تلاشى ايضا بسبب المشكلة الدستورية. بامكانك أن تزج كل حكومة حماس في السجون، ولكن المجلس التشريعي الفلسطيني لن يختفي عن الوجود، وحتى اذا تشكلت حكومة طوارىء فهي لن توافق على خطوة تصفية حكومة منتخبة. بل على العكس من ذلك، ستضطر الى إبداء موقف متصلب ومتطرف.

تشوق حماس للدخول في مفاوضات حول المختطف ليس نابعا من فزع أو ضعف، كما حاولت اسرائيل اظهار ذلك. بل على العكس تماما، فحماس تشعر بنشوة القوة. هي على قناعة أنها قد نجحت في تركيع اسرائيل.

بعض المصادر السياسية تكرر القول بأن حماس تطرح المطالب حتى تُظهر اسرائيل وهي تزحف على الارض. هم لا يهتمون بعدد السجناء، وما يهمهم هو المبدأ: هم يقودون اسرائيل الى وضع يُملون فيه عليها قواعد اللعبة الاقليمية. هم يبلورون توازنا استراتيجيا بين كيانين متكافئين. نحن سنواصل الكفاح ضد الاحتلال وسنُملي معايير ردكم علينا ايضا، كما فعل معكم حزب الله في لبنان.

كل محاولات إظهار الضغط العسكري الممارس على حماس كهجمة لتغيير مواقفها، ما هي إلا أُمنيات في الوقت الراهن. حماس تشعر انها فوق الحصان، وأن اسرائيل قابلة للضغوط وأنها ستقبل ما تطرحه عليها في نهاية المطاف. المهلة المزعومة التي أعلن عنها الخاطفون لم تكن مظهر ضعف في حماس، كما حاولوا إظهار ذلك في اسرائيل. متابعة سلوك الخاطفين لا تُظهر أي مؤشر على قلقهم من الضغط العسكري الاسرائيلي. القنوات التفاوضية مفتوحة – ولكن الشروط هي شروطهم.

المصريون، بالمناسبة، لم يتأثروا كثيرا من المهلة المعلنة. وفي شعبة الاستخبارات العسكرية «أمان» ايضا يسود اعتقاد بأنهم لن يتعرضوا لحياة جلعاد. هم يريدون التفاوض، وهو ورقتهم الرابحة، لذلك لن يقوموا بالتخلص من هذه الورقة.

في مطلع الاسبوع دخل لاعبان اضافيان الى ساحة الوساطة: الأتراك والروس الذين توجهوا الى الرئيس السوري مباشرة. ليس واضحا لاسرائيل اذا كان التوجه الى الأسد تعبيرا عن الموقف الاسرائيلي باطلاق سراح الجندي من دون شروط. في هذه المرحلة لا يعرف أحد ايضا اذا كان السوريون قد أعطوا ردا على ذلك عموما.

الخطوات العسكرية الاسرائيلية حتى الآن لم توصل حماس الى درجة الألم التي يفترض فيها أن تدفعها الى اتجاهات جديدة. على العكس. اطلاق صواريخ القسام على عسقلان ومحاولات تنفيذ عمليات انتحارية والسيارتان المفخختان اللتان اكتشفتا وفُجرتا في جنين، وقضايا اخرى تتفاعل على الارض ـ كل هذه هي مؤشرات على أن المشهد الارهابي الفلسطيني بكل صوره وتشعباته يمر في مرحلة استنهاض. هم على قناعة أن جوليفر يوشك على السقوط على الارض.

البطل هو الأكبر

المستوى السياسي في اسرائيل لم يدرك ـ أو لم يتصرف كمن يدرك ـ بأن التحدي الحمساوي استراتيجي. رئيس الوزراء ووزير الدفاع برمجا نفسيهما لمهمة تخليص الجندي المختطف. كل القرارات السياسية والعسكرية والتهديدات ـ التي لم يقف من ورائها شيء ـ كانت موجهة الى هذا الهدف. في نهاية الاسبوع الماضي فقط أدركا ما يحدث أخيرا، وفهما أن أحدا لن يعطيهما الجندي من دون ثمن مُهين.

ميزة «الطاقم المدني» ـ اولمرت وبيرتس ولفني – تكمن في أنهم يعتقدون أن الضغط الدولي ذو وزن هام، بينما كان رؤساء الوزراء ووزراء الدفاع السابقون ذوو الماضي الأمني يولون لذلك أهمية أقل. من الصعب على الجيش أكثر من السابق أن يجر مثل هذا الطاقم نحو خطوات عسكرية، وهو يقول لاولمرت وبيرتس طوال الوقت أنهما لا يتساوقان مع وتيرة التطورات على الارض وأن قراراتهما تأتي متأخرة بفترة اسبوع، وأنه كان من المفترض أن تبدأ العملية العسكرية قبل عدة اسابيع، أي قبل الاختطاف.

ربما كانوا على حق في ادعاءاتهم هذه، ولكن المستوى السياسي لن يسمح للجيش بأن يجره. ديوانا رئيس الوزراء ووزير الدفاع على حد سواء عبرا عن «الاصرار الأمني» تجاه الخارج، إلا أن الأجواء كانت مختلفة داخليا مثل عدم الإقدام على دخول بيت حانون قدر المستطاع لوجود احتمالية بقتل 200 مدني خلال ذلك. اولمرت أجلّ الدخول الى شمالي القطاع قبل اسبوع، وقد كان بحاجة الى لقاء مع قادة الألوية في القطاع على ما يبدو (في يوم الثلاثاء الأخير) حتى يشعر بالضغط القادم من الأسفل. وفي نهاية المطاف صادق على العملية أمس الاول فقط. رغبة الديوانين في الظهور في نظر الجمهور بموقف قوي و«عسكرتاري» كانت في قلب عدة بالونات صحافية في هذا الاسبوع. اولمرت استشاط غضبا في هذا الاسبوع عندما قرأ في الصحف بأنهم يتهمونه بتأجيل العملية البرية خلافا لموقف الجيش. والجيش غضب عندما قرأ أن رئيس الوزراء قد أرسلهم لاعداد وظائفهم البديلة. ووزير الدفاع جلس في يوم الاثنين قبالة التلفاز ولم يصدق ما يراه ويسمعه: قالوا هناك أنه يمثل الجانب الرقيق في هذه العملية. أما اولمرت فهو أكثر منه «ضراوة» وكفاحية. هذا كان ردا على الحكاية التي تقول إن اولمرت لم يرغب في الدخول الى بيت حانون. بيرتس فقد هدوءه في ذلك المساء وطلب النص الكامل للتحليل الصحافي التلفزيوني. وهكذا يواصل مكتب اولمرت ومكتب بيرتس الانشغال في قضية التسريب: ماذا ومن ومتى وكيف ولماذا، والأهم: من الأكثر بطولة من الآخر؟

وزير المواصلات ـ الدفاع سابقا ـ شاؤول موفاز لا يستطيع أن يضبط نفسه أمام الارتياب بين ديواني بيرتس واولمرت، لذلك لم يتوان عن صب الزيت على النار. في جلسة المجلس الوزاري الأخيرة اشتكى من التسريبات التي تُحدق حياة شليت بالخطر. المدنيان اولمرت وبيرتس غضبا من ملاحظته لانها تعني توجيه الاتهام لهما بالخيانة. وموفاز بدوره لم يتوقف عن الضحك والشماتة طوال الطريق الى المنزل.

الحقيقة هي أن اولمرت وبيرتس على حد سواء، موجودان في فخ المعادلة البسيطة جدا: تحقيق انجازات في مواجهة حماس يستوجب ممارسة الضغوط على السكان الفلسطينيين. حماس تصغي للشعب، ولكن الضغط على السكان يثير المعارضة الدولية وينتزع الشرعية من أيدي الجيش من الناحية الاخرى.

هذه معادلة لا تخلو من الاشكالية وتتسبب في عمليات عسكرية متلعثمة بسبب قضية الشرعية ـ بعد سلسلة الاخفاقات التي ارتكبها سلاح الجو في عمليات الاغتيال الأخيرة في غزة وعلى شاطىء البحر (عائلة غالية)، الأمر الذي دفع بيرتس الى رفض مواصلة تلك العمليات. أحد الضباط الكبار وصف الوضع على النحو التالي: نحن لسنا قُساة بدرجة تكفي لاخافة الطرف الآخر وردعه، إلا أننا قُساة بدرجة تكفي لاثارة المزيد من الارهاب ضدنا.

من الذي سينكسر أولا؟

الجيش الاسرائيلي يمارس اسلوب الدرج على قطاع غزة، وهو في الواقع عبارة عن صيغة حمل كاذب: وكأنهم يمارسون الضغط على حماس. من يريد أن يدُلل جهاز الدفاع يستطيع أن يقول أن هذه لبنة في سلسلة الضغوط الممارسة (اقتصاديا وسياسيا) وربما تؤتي أُكلها ذات يوم. البعض الآخر قد يقول في المقابل أن الحمل الكاذب لن يطرح شيئا.

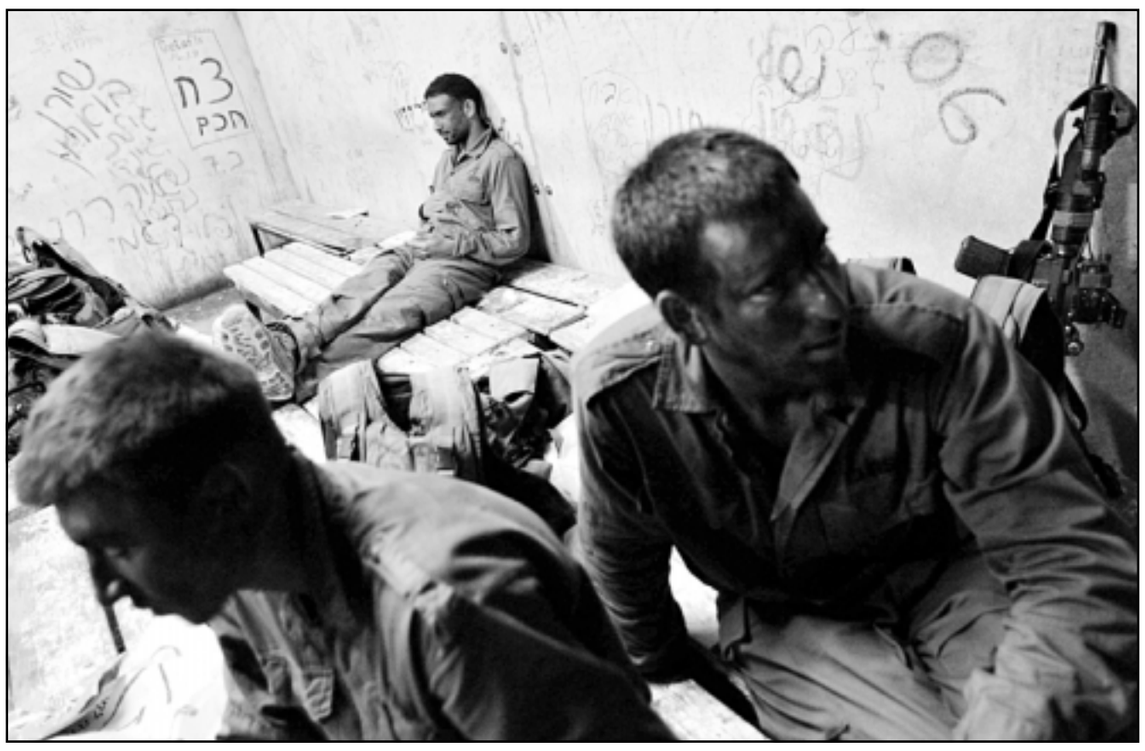

جنود اسرائيليون بانتظار اوامر اجتياح غزة

في كل الاحوال، دخل لواء غولاني في وضح نهار يوم الخميس الى عمق ستة كيلومترات شمالي القطاع حتى يتصادم مع مطلقي صواريخ القسام. يبحثون في الأساس عن الخلية التي تمتلك الصواريخ الجديدة (12 كيلومتراً).

كمية الصواريخ هبطت في الاسبوع الأخير ايضا بسبب رئيس الوزراء الفلسطيني، اسماعيل هنية، الذي طلب تخفيض الضغط قليلا، وكذلك بسبب قطع التيار الكهربائي الذي يعرقل عمل المخارط. ربما لم يكن ذلك ما قصده من قطع الكهرباء، ولكن يتبين أن قطع الكهرباء يعرقل انتاج الصواريخ.

الجيش يوضح خلال ذلك أنه يستطيع العودة الى المنطقة كما يشاء من دون أن يستوطن فيها. اذا أطلقوا القسام بعد خروجنا سنعود مرة اخرى. في هذه المرحلة لا يوجد تصادم مع المنطقة السكانية. الجيش يرغب في اجتذاب المقاتلين خارجا، وهم يريدونه أن يدخل الى المناطق العمرانية حتى يدفع الثمن. كل طرف يسعى الى عدم السقوط في مصيدة الآخر.

التقديرات في جهاز الدفاع هي أن الازمة الحالية التي بدأت قبل أكثر من شهر، مع قتل عائلة غالية، موجودة في ثلثها الاول فقط. نحن في قمة الطريق فقط. اذا لم يحدث تطور دراماتيكي فان أمامنا اسابيع طويلة اخرى من الازمة.

امكانيات انهاء الازمة تتراوح بين اطلاق سراح شليت بلا مقابل، وبين دخول الجيش المكثف الى القطاع والتواجد في مناطق عمرانية لفترة طويلة. السيناريو المتطرف للأحداث هو احتلال شامل وتواجد في عمق القطاع.

المرحلة الحالية من الاجتياح المدرع لشمالي القطاع هو في الواقع مرحلة ضرورية لكل اجتياح بري في المستقبل. كل قرار لرفع المستوى والدخول الى مناطق عمرانية يستوجب السيطرة على المناطق المفتوحة المحيطة بالقطاع من اجل منع اطلاق النار المكثف على التجمعات الاسرائيلية المحيطة بغزة. بكلمات اخرى، الجيش يقول: الحرب ضد القسام ما هي إلا مرحلة (أ) في عملية أكبر.

لم يكن صدفة التسريب من جلسة المجلس الوزاري المصغر بأن احدى العمليات التي تمت المصادقة عليها هي تقطيع أوصال القطاع. التسريب جاء ليعبر للفلسطينيين، وخصوصا لقادة حماس، عن وجود فصول اخرى في الخطة. ولكن تقطيع أوصال القطاع يستوجب قوات أكبر من لواء لاحتلال المنطقة لمدة طويلة. هنا لم يعد الأمر عبارة عن اجتياحات عديدة، وانما عملية شاملة ومتتالية داخل المناطق المأهولة.

المرحلة الثالثة من العملية البرية خُططت هي الاخرى كعملية تدريجية لادخال قوات كبيرة الى مناطق مأهولة واحتلال أجزاء منها. في كل مرحلة، بدءا من الاجتياح المدرع الذي بدأ، يتوجب على الجيش أن يتأكد من الأثر الذي تركته على الخصم.

الجيش، كما اسلفنا، يستعد لازمة تمتد لاسابيع، ولكن أحدا لا يعرف مدى تحمل حماس وأين تكمن نقطة انكسارها. المستوى السياسي سيطلق في كل مرة طرف خيط، والجيش سيضرب، ومن ثم يقومون باعادة التقييم: من الذي يعاني أكثر؟ نحن من الضغط الدولي والارهاب الذي سيجربه الطرف الآخر؟ أم هم من الضغط العسكري والاقتصادي؟

حماس، بالمناسبة، التي تمر في حالة تشوه منذ الاختطاف، على قناعة بأن اسرائيل لا تمتلك الصبر والقدرة على التحمل، وانها ستخضع للاملاءات. وفي غضون ذلك تجري في مكان مخبأ جلعاد ديناميكية اخرى من الضغوط. التقدير هو أن الخاطفين موجودون في ظروف سجن مماثلة للظروف التي يعيش فيها الأسير. فرضت عليهم سرية مطبقة بسبب الخوف من اكتشاف اسرائيل لآثارهم. في مرحلة ما سيحتاجون الى الغذاء، وربما يصل ضجيج المعركة الى أسماعهم والقلق من اكتشاف أمرهم في كل لحظة. كل هذه الامور قد تؤثر على سلوكهم وعلى رجاحة قراراتهم.

أطراف أمنية عليا تقول إن هذه الضغوط السيكولوجية قد تكون رافعة لاطلاق سراح شليت، ولكنها من الناحية الاخرى قد تدفع الخاطفين الى سلوك غير عقلاني والى المس به. الجدول الزمني هنا ايضا لا يخلو من المشاكل، ويجب أن نأخذ في الحسبان أننا لا نملك كل الوقت الموجود في العالم وفق ما نشاء.

اليكس فيشمان
المراسل العسكري للصحيفة
(يديعوت احرونوت) 2006/7/7

عملية «أمطار الصيف» مهما تكن ناجحة لن تُسكت القنبلة الموقوتة التي تُعرف باسم «قطاع غزة»

المواجهة والقوة السببان الوحيدان اللذان سيقنعان الطرفين بأن التسوية والتفاوض سيكونان الحل الوحيد للازمة الحالية وللصراع

■ الجنود الذين كانوا بانتظار دورهم للدخول الى غزة هذا الاسبوع، تسابقوا الى التقاط صورة تذكارية قبل العملية التي كانت بانتظارهم، لكن الحرارة التي كانت سائدة داخل العربة المصفحة جففت شفاههم ورفعت حرارتهم.

في ظروف كهذه، من المشكوك فيه أن يكون أحد قد لاحظ بأن الجيش قد ركز قواته، دون قصد مسبق، قريبا من ثلاثة مواقع تمثل الأجزاء التي تتلخص فيها نظرية الحرب الاسرائيلية، ونقطة تركيز القوات الأساسية كانت في المكان القريب من نقطة تجميع القوات الاسرائيلية اثناء الاستعداد لتوجيه الضربة الانتقامية جراء الضحايا الاسرائيليين الذين سقطوا في سنوات الخمسين. وذلك النصب التذكاري أُطلق عليه اسم أحد المنفذين لتلك العملية التي أشرف عليها قبل 52 سنة، وكان برتبة مقدم، واسمه اريل شارون.

بالقرب من ذلك المكان يقع مبنى مقر الهدنة، حيث كان ضباط مصريون واسرائيليون يلتقون فيه للتنسيق حول غزة، وذلك الى أن احتلت اسرائيل غزة عام 1967. وفي الجهة الثانية يوجد مكان للاستجمام على اسم المقدم نبي مرعي الذي قُتل في اليوم الاول لاندلاع الأحداث التي فجرت معها اتفاقات اوسلو سنة 1996 والمعروفة بانتفاضة النفق، في القدس.

الاستنتاج الذي لا يمكن الامتناع عن فهمه هو أن هذه المواقع الثلاثة تُذكر كل من يحاول التجاهل والنسيان أن عملية «أمطار الصيف»، مهما تكن ناجحة، لن تُسكت هذه القنبلة الموقوتة التي تُعرف باسم «قطاع غزة».

وعلى الرغم من ذلك، مقابل ذلك الجدار، فان الاحساس يؤكد بأن معركة لها أبعاد ومضاعفات مهمة ما زالت في الطريق. ليس مصير الجندي جلعاد شليت هو الموضوع فقط على كفة المفاجأة في الاسبوع الثاني لاختطافه، بل إن الطرفين، اسرائيل وحماس، كليهما يقاتل من اجل فرض حقائق جديدة، على الأقل للمرحلة القصيرة القادمة. اسرائيل تحاول استغلال هذه الازمة لتضع حدا لاطلاق الصواريخ، ولاعادة قوة الردع التي سُحقت هناك. لكن حماس ردت هذا الاسبوع باطلاق الصواريخ على قلب عسقلان، حيث أوضحت أنها هي الاخرى لديها أهداف تراهن عليها أكثر من مجرد الطلب باطلاق سراح سجناء من السجون الاسرائيلية. والرسالة الضمنية من ناحيتها هي أنه «لا يوجد شيء اسمه انطواء أحادي الجانب»، وأن الهدف هو تعليم اسرائيل الدرس قبل أن تفكر جديا في البدء في تنفيذ خطة الانطواء.

والى أن تُحسم هذه الجولة الحالية في المواجهة بين حماس واسرائيل، فان كلا الطرفين يلعبان لعبة «حياة وموت»، وعلى نحو أكثر دقة، فان حياة كبار قادة حماس أصبحت معلقة ومرتبطة بحياة الجندي الاسرائيلي المختطف، وأن اسرائيل قد حددت علامة الاصابة لهدفها رؤوس قادة حماس. واضافة الى ذلك، في الدائرة الواسعة، فان 1,4 مليون انسان، هم سكان قطاع غزة الواقعون تحت الحصار، هم الذين يدفعون الثمن المباشر، سواء بالنسبة للاختطاف أو بالنسبة لوجود نحو 200 ألف اسرائيلي مُهددين بالصواريخ الذين يعيشون حول منطقة قطاع غزة (بما في ذلك عسقلان)، وأن سكان القطاع هؤلاء يعيشون كرهائن تحت تهديد صواريخ القسام. فمن الذي سيتحطم أولا؟ وكيف ستنتهي هذه الدراما؟ ها هي عدة سيناريوهات لانهاء هذه الازمة، وللحقيقة، فانها كلها لا تعتبر خيالية حتى هذه اللحظة.

السيناريو الأول: توجد صفقة

الأنباء الاولى تصدر في الصحف العربية في لندن، وبعدها في اسرائيل. وحسب هذه الأنباء، فان اسرائيل تُجري مفاوضات حقيقية مع الخاطفين للجندي جلعاد، ومع أن المتحدثين باسم رئيس الوزراء ينفون ذلك باصرار، ولكن بعد مرور وقت غير طويل، يستدعي رئيس الوزراء اولمرت محرري الصحف الى مؤتمر عاجل ويشرح لهم: توجد صفقة. ويشرح لهم ايضا بأن الحفاظ على السرية لمدة 24 ساعة هو مصيري بالنسبة لحياة الجندي شليت. والرقابة، في كل الاحوال، تضع قيودا كاملة على كل التفاصيل لاسباب أمنية، وذلك في الوقت الذي يُنقل فيه شليت بسيارة مغلقة من مكان وجوده الى كرم أبو سالم بأمان. وفي بيته تعلو اصوات الفرح والسرور بعد أن يتلقوا النبأ المفرح. جلعاد في طريق العودة الى بيته. أبناء العائلة ينفجرون بالبكاء فرحين، ويبدأ التوتر والغضب الذي تراكم منذ الاختطاف بالزوال، وبعد ذلك يتصل جلعاد من طائرة وزير الدفاع (المروحية) مع عائلته «أمي، أنا في الطريق الى البيت»، ويرفع صوته ليتغلب على صوت المحركات. ودموع الفرح تخنق عبارة أفيفة شليت ويصعب عليها الكلام.

التفسير: نعم، ورغم كل العبارات الرافضة والمتكررة بأننا «لن نُجري مفاوضات مع الخاطفين»، إلا أننا نتحدث عن سيناريو محتمل وله نصيب من الواقعية. فمن وراء الكواليس تجري اتصالات غير رسمية، حيث يُديرها المصريون ويشارك فيها الأتراك على نحو غير متوقع. فليس غريبا أبدا اذا ما انتهت مشكلة شليت والاختطاف عن طريق الاتصالات وعن طريق التسوية التي لا بد من الإقدام عليها، حيث يكون كل طرف من الطرفين يمكنه الادعاء بأنه «لم يتنازل أبدا عن أي من المبادىء».

اسرائيل، على سبيل المثال، يمكنها أن توافق على اطلاق سراح عدد محدد من السجناء، وفي المستقبل فقط، وكنوع من «بادرات حسن النية» للرئيس محمود عباس، وذلك لاتاحة المجال أمام حماس للنزول عن الشجرة (شجرة المطالب العالية) ولكي تتيح المجال فيما بعد للقول بأنها أنجزت وحققت نصرا. كلما مر الوقت أكثر تحول ما يُعرف بـ«جلعاد شليت» الى مشكلة أكبر وعبء أكبر، وبالتالي، فان حماس قد توافق على هذه التسوية.

المشكلة هي أنه مهما كانت الطريقة التي سيعاد فيها شليت الى اسرائيل، ستبدو جريئة ومشجعة، وستشجع فلسطينيين مستقبلا على القيام بالمزيد من هذه المحاولات لاختطاف جنود، كما أن مشكلة اطلاق صواريخ القسام لن تُحل بهذه الطريقة، وستبقى الأمور على حالها، وتتطلب حلا منفردا.

السيناريو الثاني: الخروج لتحرير جلعاد شليت

(ن)، رجل المخابرات الاسرائيلي المسؤول عن منطقة القطاع، يحصل في نهاية الأمر على قصاصة صغيرة من المعلومات التي تنتظرها اسرائيل، من مصدر موثوق لديه، والتي سيقول له فيها هذا المصدر «الثقة» أن شليت موجود في أحد البيوت في مخيم الشبورة عند مداخل رفح، وأن خاطفيه قد اختفوا وكأن الارض ابتلعتهم، وأن اثنين منهم قد غادرا البيت في ظلام الليل ثم عادا اليه خلسة وهما يحملان كميات كبيرة من الطعام، وأن أحدا قد رآهما، وهكذا سرت الشائعة عن موقع وجوده الذي تحقق منه المصدر وتأكد من صحته.

وبعد ذلك تنتقل هذه المعلومة الدرامية لرئيس الوزراء ووزير الدفاع، في داخل ظرف مغلق ومختوم من «الشاباك». وخلال وقت قصير يقوم جهاز الاستخبارات العسكرية بجمع المعلومات والتفاصيل عن البيت المذكور الكائن في وسط شارع ضيق، ويتضح أنه حتى الساعة التاسعة، فان حراسه موجودون الى جانبه باستمرار، وكذلك توجد حراسة سرية عند مدخل الشارع، ويُخرج الجيش الاسرائيلي من أرشيفه كل المعلومات عن الشارع التي كان قد جمعها في الايام التي حكم فيها القطاع، وتقوم الطائرات بدون طيار بتعديل وتحديث الصور من الجو للشارع والبيت. ويقوم رئيس الاركان وقائد المنطقة الجنوبية باستدعاء قائد وحدة الاركان الخاصة وقائد وحدة سلاح البحرية وقائد الوحدة الخاصة في الشرطة، ويضعون أمامهم تلك المعلومات السرية على الطاولة ويقولون لهم «أمامكم خمس ساعات فقط لتضعوا خطة أولية لعملية انقاذ، معا أو على نحو منفرد»، وخلال 24 ساعة يراقب اولمرت تجربة ومناورة تقوم بها وحدة الاركان الخاصة مع البحرية ووحدة الانقاذ الخاصة للشرطة. «الخطة جيدة»، هكذا يحدد اولمرت ويوافق بقلب مشحون على البدء بعملية الانقاذ.

ومع مرور 12 ساعة من شد الاعصاب والقلق والتوتر يكون رئيس الوزراء بانتظار المعلومات عن نتائج الانقاذ، حيث ان المكان مليء بالناس، فمن غير الممكن الوصول الى البيت دون ان تُكتشف القوة المنقذة، وان اخطارا كبيرة تحيق وتحدق بكل القوة المنقذة وان الاحتمالات لاعادة الجندي شليت سالما الى بيته ضئيلة جدا. ونذكر ان محاولة انقاذ الجندي الاسرائيلي نحشون فاكسمان في شهر تشرين الأول (اكتوبر) 1994، الذي كان محتجزا في احد البيوت المنعزلة تقريبا وفي قرية غير آهلة بالسكان على النحو الذي نراه هنا، قرية «بيرنبالا» كانت العملية قد نفذت في ظروف افضل بكثير، ومع ذلك، فقد فشلت، وقتل فاكسمان، وعليه، وفي الحادث الذي نحن بصدده، فان اولمرت سيسمح بالقيام بعملية (انقاذ) احتمالات نجاحها اقل بكثير من تلك التي جرت سنة 1994، اذا لم يكن هناك مبرر آخر للقيام بذلك.

السيناريو الثالث: نصر الله يدخل الى الصورة

بعد مرور 23 يوماً على حصار قطاع غزة دون رجوع جلعاد الى بيته، فان معلومة (نبأ) مفاجئة تصدم اسرائيل وهي غير مستعدة لها: فمنشور يوزع في غزة يقول بأن «الجندي (جلعاد) لم يعد في ايدينا». وبعد وقت غير طويل يعلن زعيم حزب الله اللبناني، حسن نصر الله، بان «بيانا هاما سيعلن خلال اليوم». وفور ذلك تبدأ وسائل الاعلام الاسرائيلية بوتيرة «البث المباشر» والمتواصل، لكن نصرالله يبدأ بإزالة الضباب شيئا فشيئا، وكما يجب أن يفعل. وفي نهاية النهار، يتضح أن حماس تمكنت من تهريب الجندي المختطف بواسطة نفق من رفح الى مصر، ومن هناك تم نقله الى العريش، ثم وضع على احدى سفن الشحن الغربية وانتهى به المطاف الى لبنان. ومن هناك يعلن نصر الله أن ثمن اطلاق سراح جلعاد ازداد وارتفع. وهناك يطلب مقابل اطلاق سراحه اطلاق سراح 2000 من السجناء الفلسطينيين على الأقل، وكذلك سيطلب اطلاق سراح المعتقل اللبناني سمير قنطار الموجود في السجن الاسرائيلي منذ قتل عائلة هيرن في نهاريا عام 1979.

وهنا يعاني رئيس الوزراء اولمرت من الغضب، ويعلن بأنه لن يوافق أبدا على اطلاق سراح سجناء، وتبدأ الجبهة الشمالية بالتوتر والتصعيد، وتبدأ طائرات سلاح الجو في التحليق على خط الحدود، وصواريخ الكاتيوشا تسقط على مستوطنات الشمال، وهناك يعلن نصر الله عن إنذار جديد: «اذا لم يتم الافراج عن معتقلين خلال 24 ساعة، فان ضررا سيقع للجندي».

وتتواصل الاجتماعات والبحث في وزارة الدفاع طوال الليل، وفي نهاية الأمر يتم الاتفاق على الرد على الانذار بانذار مقابل: اذا ما أصيب جلعاد، فان اسرائيل ستهاجم بيروت وتضرب زعماء حزب الله، وتستمر حرب الأعصاب لمدة شهرين.

ان نقل جلعاد الى لبنان سيكون تطورا سيئا للغاية من جانب اسرائيل. ومن هنا ستكون احتمالات اعادته الى اسرائيل أصعب، دون الموافقة على اجراء «صفقة مهينة» لاسرائيل مع نصر الله. والشيء الذي يقلل الضرر هو أن سيناريو من هذا النوع قليل الاحتمال، بل ربما هو بمستوى صفر. فالمصريون بدأوا في تعزيز قواتهم العسكرية على طول الحدود مع القطاع ومحور فيلادلفيا على نحو واضح، ونشاطاتهم تبدأ بأسلوب جديد. واسرائيل من ناحيتها تعمل من اجل منع تهريب الجندي عن طريق البحر بكل حرص، لا يمكن السماح لأي وسيلة بحرية الخروج من غزة. ومن ناحية الخاطفين، فان خطرا كبيرا يواجههم في حالة قرروا مغادرة المكان الذي يحتجزون فيه الجندي المختطف بسبب غمر القطاع بالمخبرين وعملاء اسرائيل المنتشرين في كل مكان الذين سيبلغون عن كل حركة مشبوهة.

وفي كل الاحوال، اذا ما تمكن هؤلاء من نقل جلعاد شليت الى مكان آخر رغم كل هذه الاجراءات والاحتياطات، ونقلوه مثلا الى لبنان، فان اسرائيل ستواصل ممارسة الضغط الكبير والمتواصل على السلطة الفلسطينية بصورة عامة، وعلى حماس بصورة خاصة، وستواصل التمسك بقرارها اعادة الجندي دون أي مقابل. ذلك في البداية على الأقل، ولكن في نهاية الأمر، فان ميزان التهديد والخوف بين اسرائيل وحزب الله، والمخاوف بأن يقوم حزب الله بمهاجمة المواقع والمستوطنات الاسرائيلية القريبة من الحدود الشمالية ردا على هجوم اسرائيلي على بيروت، فان هذه الأحداث قد تؤدي الى الموافقة على عقد صفقة تبادل أسرى مع نصر الله، والذي لم يتم دفعه لحماس، سيكون أغلى ثمنا في لبنان.

السيناريو الرابع: حرب اختطاف

تقوم وحدة كوماندو بحرية بنصب كمين لسيارة رئيس الوزراء الفلسطيني هنية، غير بعيد عن شاطىء بحر غزة، وتسحبه من السيارة وتختفي. وخلال دقائق يذُاع الخبر في كل وسائل الاعلام. والانتقام الفلسطيني لن يتأخر. خلية تابعة لحماس تخرج في طريقها من قرية حوسان وتكمن لعضو كنيست اسرائيلي في الطريق وتخطفه، وفورا يظهرون على شاشة «الجزيرة» ويقولون بأنه «اذا لم يتم اطلاق سراح هنية خلال ساعات، فان عضو الكنيست لن يبقى على قيد الحياة».

وفي نفس الوقت، فان المجموعة التي تمكنت من اختطاف جلعاد ستعود للتسلل من جديد الى اسرائيل عبر نفق آخر لم يتم اكتشافه بعد، وتتمكن من خطف جندي آخر. وحزب الله سينضم الى هذا الاحتفال وسيحاول خطف جندي من لبنان ليقلل الضغط على حماس في غزة.

حزب الله يحاول منذ وقت طويل تنفيذ عملية اختطاف على الحدود الشمالية، حتى يتمكن من الافراج عن سمير قنطار، وحالته ودوافعه النفسية تزداد وتقوى في هذه الظروف، وقوات الجيش الاسرائيلي متنبهة ومستعدة جيدا على الحدود الشمالية. وكذلك فان الفلسطينيين على قدر كبير من الاهتمام لمحاولات تنفيذ عمليات اختطاف اضافية. اذا ما انفجرت حرب الاختطاف من كلا الطرفين، فان هذا سيزيد من تعقيد الاوضاع، لكنه لن يغيرها على نحو جذري.

السيناريو الخامس: الخاطفون يطلقون النار

هكذا ايضا يمكن أن يحدث، لا سمح الله. فحسب المعلومات الاستخبارية التي نتلقاها، فان الخاطفين قاموا باطلاق النار على شليت لدى سماعهم أصواتاً غريبة أشعرتهم بالذعر بسبب محاولة اسرائيلية لمداهمة البيت السري الذي تختبىء فيه المجموعة مع الجندي شليت. فهم لدى سماعهم اصواتا غريبة وبسبب التوتر ظنوا أن وحدة اسرائيلية خاصة تريد مهاجمتهم وتخليص جلعاد، أو أنهم يقررون قتل جلعاد بدم بارد لكي يتخلصوا من «حبة البطاطا الساخنة التي في أيديهم». وبعد ان يتأكدوا أن اسرائيل فعلا لا تريد الافراج عن سجناء فلسطينيين ولا حتى التفاوض على ذلك.

وهم لن يذيعوا بيانا حول مقتله. ولكن لأصحاب القرار، لا يوجد أدنى شك: جلعاد لم يعد موجودا. أو أن يقوم هؤلاء، حُراس جلعاد، باطلاق النار عليه كرد فعل على نبأ يسمعونه عن مقتل ستة من المواطنين الأبرياء في غارة شنها الجيش الاسرائيلي على منطقة بيت لاهيا شمالي القطاع، وعند ذلك، قد يدعي الخاطفون أن جلعاد أصيب بالغارة التي شنتها الطائرات الاسرائيلية على أحد الأهداف الفلسطينية، مع أن أحدا لن يصدق تلك الرواية أبدا.

إن رفض اسرائيل اجراء المفاوضات مع الخاطفين، على الأقل حسب البيانات العلنية، قد يدفع هؤلاء في لحظة يأس الى المس به، وعليه، فان كل يوم يمر يزيد من أخطار حدوث ذلك. وكان من الأجدر اعطاء الفلسطينيين الاحساس بأنه ربما «يوجد ما يمكن التحدث حوله»، حتى وإن كانت اسرائيل لا تريد اجراء مفاوضات حقيقية معهم، رغم الفتاوى الاسلامية الكثيرة التي أُسمعت هذا الاسبوع والتي تقول كلها أنه يحظر قتله. إن الاعلان عن مقتل شليت سيكون شرارة جديدة لبداية مرحلة جديدة من التصعيد الخطير للاوضاع، واسرائيل ستنفذ حقيقة تهديداتها بتصفية قادة حماس وان خالد مشعل سيدفع ثمن المغامرة التي قادها حين يهاجم في سورية. وسيكون رد حماس قوياً وتبدأ العمليات الانتحارية داخل الخط الاخضر والتي ستجعل اسرائيل اكثر جنونا. وهنا، قد يفكر السوريون باطلاق صاروخ ارض ـ ارض باتجاه اسرائيل، ولسبب ك